

الفصل الرابع

صادف العام الذي أصبحت فيه في سنّ الثالثة عشرة بداية قرن جديد، وبدأت ألاحظ أنّ هنالك تغييرات تطانني، تدريجياً. لقد كنت أنمو. وكان أكثر ما يميّز هذه المرحلة، الإقلال من رحلات الصيد بصورة ملحوظة، والمواظبة على التسكّع في المركز التجاري، ومخالطة الناس، والالتقاء بأشخاص جُدد.

كان جيلبرت يرافقتني عادة، إضافة إلى جيفري وآخرين. كنّا نذهب هناك ونلعب الباوو باستمرار. والباوو هي لعبة تحظى بشعبية كبيرة في مالوي وغرب إفريقيا، وتُلعب بكُرّات البلّور (البنانير) أو الحبوب التي توضع في تجاويف في لوح خشبي طويل. وكان لكلّ لاعب صفّان يحتوي كلّ منهما على ثمانية تجاويف. وتهدف اللعبة إلى الاستيلاء على محتويات الصفّ الأمامي للمنافس، ومنعه من التحرك.

تتطلب الباوو كثيراً من التخطيط والتفكير السريع. أعترف أنّني كنت ماهراً بهذه اللعبة، وكنت أهزم الصبية الآخرين في المركز التجاري، الأمر الذي أعدّه انتقاماً بسيطاً لوضعي على دكّة الاحتياط في أثناء مباريات كرة القدم في الماضي. صحيح أنّني لم أحصل على المانغولوميرا. ولكن، كان لديّ الباوو.

كلّما كنت أهم بالذهاب إلى المركز التجاري لرؤية أصدقائي، كان كهامبا ينهض محاولاً اللحاق بي. لقد كان يحنّ إلى رحلاتنا معاً، لكنني كنت أمنعه من مرافقتي؛ فالناس سيقلّلون من شأنني إذا رأوني أمشي برفقة كلب. وفي إحدى المرّات، تبعني كهامبا إلى

المركز التجاري من دون أن أشعر بذلك. وحين وصلت شجرة التين قرب صالون الحلاقة، حيث كنا نلعب المباو، أشار إليّ أحدهم وأخذ يضحك، ثم بدأ الحضور يسخرون مني بقول عبارات لاذعة، من مثل: لم تحتاج إلى هذا الكلب خلفك؟ أنا لا أرى أي أرناب أو طيور في الجوار. هل تصيد في السوق؟.

بدأ الصبية الآخرون يضحكون أيضاً. لقد كان موقفاً محرّجاً. بعد كل ما حصل، قطعت على نفسي عهداً أن أكون أكثر حزماً معه، فكلّما حاول اللحاق بي كنت أعنفه بشدة. وعلى الرغم من شتمني إيّاه، وصراخي عليه مراراً، فإنه لم يكن يطعني. وكان عليّ – بعد المشي أمتاراً عدّة – التقاط حجر صغير وقذفه على رأسه، ثم توييخه قائلاً: والآن، دعني وشأني.

وبعد تكرار هذا الأمر مرّات عدّة، تمكّن أخيراً من فهم الرسالة؛ فكان يأتي إلى المركز التجاري، ولكن وحده، ولاسيّما في أثناء موسم التزاوج في حزيران، حين كانت إناث الكلاب تجوب القرى شبقة. وكان حين يراني يهرول صوبي هازاً ذيله، لكنني كنت دائماً أردعه قبل أن يصل، وأصرخ قائلاً: اذهب!، وأركل التراب لأخيفه قبل أن يراني أحد.

وعلاوة على ذلك، لم تعد أخبار فريق إم تي إل البدوي تستحوذ على مخيلتي ومشاعري، مع أنّني كنت أعدّ البدو أكثر من مجرّد رجال؛ إذ كنت أتابع مبارياتهم بوساطة المذياع وأتخيّلهم كالعمالقة. وعندما كان فريق البدو يخسر، وبخاصة أمام فريق بيغ بوليتس، كنت أصاب بتعاسة لا أقوى معها على تناول العشاء، حتى لو قدّمت لي والدتي الدجاج، علماً بأنني أحبّ الدجاج كثيراً. لقد كانت متابعتهم تمثّل هوساً بالنسبة إليّ. وفي أثناء مبارياتهم – ذلك الموسم – أمام فريق بيغ بوليتس، كان قلبي يخفق بسرعة كبيرة لدرجة أنني شعرت بدنوّ أجلي (أعتقد أنّ ما مررت به يُسمّى نوبات قلق). قلت لنفسني: ما هذا الذي أفعله؟ كرة القدم تضرّ كثيراً بصحتي. لذا، توقّفت بعد ذلك عن متابعة اللعبة برمتها.

آنذاك، بدأت أنا وجيفري تفكيك بعض أجهزة المذياع القديمة والمعطلّة لرؤية ما بداخلها، محاولين فهم مبدأ عملها؛ كي نتمكّن من إصلاحها.

في مالواي ومعظم أجزاء قارة إفريقيا التي تقتقر إلى الكهرباء اللازمة لتشغيل التلفاز، يُعدّ المذياع حلقة الوصل الوحيدة لنا بالعالم خارج القرية. وأينما ذهبت؛ سواء في دهايز

أعمق دغل، أو في شوارع المدينة المزدهمة، فإنك ستري أناساً يُنصِتون إلى أجهزة مذياع صغيرة تُحمَل باليد. سوف تسمع موسيقا الريغا المالاوية، أو موسيقا البلوز الأمريكية التي تبثها محطة راديو تو من بلانتاير، أو كورس الإنشاد الإنجيلي وعضة الكنيسة في ليلونغوي.

أضف إلى ذلك أنه منذ انطلاق هيئة البث المالاوية بعد الاستقلال، أصبح المالايون يُعدّون المذياع فرداً من العائلة. وقد أخبرنا والدي عن الأيام الأولى للهيئة، وعن سماعه هو وأقرانه أغاني دولي بارتون وكيني روجرز من أمريكا، إضافة إلى غناء روبرت فومولاني الرائع. كانت البرامج الزراعية تلقى رواجاً في تلك الحقبة، ويتدكّر والدي كيف كان الرئيس باندا - المزارع الأول - يذكر الجميع بتنظيف حقولهم، وحفر الأثلام، ونثر البذور قبل المطر، قائلاً: إن فعل ذلك يجعل المالايين سعداء وناجحين. وكان يذكرهم بوضع الزبل! أمّا أنا، فسأتذكّر دوماً كيف كنت أستمع أيام الطفولة وما تلتها إلى عضة الأحد التي كان يلقيها شادريك وأمي في كنيسة إفريقية الوسطى المشيخية ليلونغوي، يتبعها برنامج أفضل عشرين أغنية.

حتى أعوام قليلة خلت، ولسوء الطالع، لم يكن لدينا سوى قناتين إذاعيتين (راديو وان، وراديو تو) حكوميتين، الأمر الذي تسبّب في الحدّ من مدى اطلاعنا على العالم بصورة كبيرة.

وفي واقع الأمر، فقد انتابني فضول شديد ورغبة جامحة في معرفة ما يجري داخل هذا الجهاز منذ أول مرّة سمعت فيها الصوت الصادر منه. كنت أهدقُ بألواح الدارات الكهربائية، وأتساءل عن وظيفة الأسلاك، وألوانها المختلفة، والمكان الذي تؤوّل إليه في النهاية. كيف يمكن لهذه الأسلاك والقطع البلاستيكية الصغيرة أن تسمح لدي جيه موجود في بلانتاير أن يتكلّم هنا في بيتي؟ كيف تعزف الموسيقا على موجة، في حين يلقي الواعظ خطبته على أخرى؟ مَنْ يربّتها بتلك الطريقة؟ كيف توصل إلى هذه المعرفة الرائعة؟

لقد تعلّمنا عن طريق المحاولة والخطأ فقط أنّ مصدر الصوت هو لوح الدارة الموحد؛ القطعة الكبرى التي تحتوي على الأسلاك والقطع اللدائنية (البلاستيكية) جميعها؛ إذ ترتبط الدارة الموحدّة بقطع صغيرة تشبه حبات الفول. تلك هي الترانزستورات، ومهمتها التحكّم

في الطاقة التي تسري في المذياع وصولاً إلى السماعات. لقد تعلّمت أنا وجيفري ذلك بعد فكّ أحد الترانزستورات، وملاحظة ما أفضى إليه هذا الأمر من انخفاض في درجة الصوت بصورة ملحوظة. لم نكن نمتلك أداة لحام جيدة. لذا، كنّا نصلح ألواح الدارات بتسخين سلك غليظ على نار المطبخ حتى يصبح لونه أحمر من شدّة الحرارة، ثمّ نستخدمه للحم القطع المعدنية بعضها ببعض.

تعلّمنا أيضاً كيف يلتقط المذياع الموجات المختلفة؛ سواء موجة تضمين التردد (إف أم)، أو تضمين السعة (إيه أم)، والموجات القصيرة؛ إذ يلتقط المذياع موجة تضمين السعة عن طريق هوائي داخلي؛ لأنّها موجات طويلة. ولكن، في حال موجة تضمين التردد، فيجب أن يكون الهوائي خارجياً؛ ليلتقط أصغر الموجات وأضيقها من الهواء. أضف إلى ذلك أنّ اصطدام موجة تضمين التردد بشيء طويل؛ كبناء أو شجرة، يحجبها، كما هو الحال بالنسبة إلى الضوء.

وسبب تعلّمنا كلّ شيء عن طريق التجريب، فقد ضحينا بعدد كبير من أجهزة المذياع الجيدة للحصول على المعرفة. أعتقد أنّنا حصلنا على مذياع من كلّ عمّ، أو عمّة، أو جار، وقد تكدّست كلّها في كومة ضخمة وُضعت في صندوق بغرفة جيفري. وما إن تعلّمنا من أخطائنا حتى بدأ الناس يُحضرون لنا أجهزةهم المعطّلة طالبين منّا إصلاحها، وسرعان ما أصبح لدينا مشروع صغير.

اتخذنا من غرفة نوم جيفري الصغيرة التي تقع مباشرة خلف بيت والدته مكاناً للعمل؛ إذ كنّا ننتظر الزبائن هناك، في حين اكتست الأرضية تحتنا بكومة من الأسلاك وألواح الدارات والمحرّكات، والهياكل المكسورة، فضلاً على قطع معدنية وبلاستيكية غير معروفة افترشت الطريق. وفيما يأتي مثال على تعاملنا مع الزبائن:

دخل أحد الأشخاص قائلاً: أودي أودي. لقد كان رجلاً عجوزاً من القرية المجاورة، يتأبّط مذياعه كدجاجة.

قلت: تفضّل.

قال: سمعت أنّ أحداً هنا يصلح أجهزة المذياع.

قلت: هذا صحيح؛ أنا وزميلي السيد جيزري. ما المشكلة؟

قال: لكنكما مجرد طفلين. كيف هذا؟

قلت: لا تشكك في قدراتنا. أخبرني، ما المشكلة؟

قال: لا أستطيع التقاط موجة المحطة. إنّه لا يبيث.

قلت: دعني ألقى نظرة... ممممم... نعم، أعتقد أنّ بوسعنا إصلاحه. تعال خذّه قبل

وقت العشاء.

قال: بل قبل السادسة! اليوم السبت، وأريد الاستماع إلى المسرحيات.

قلت: حسناً.

كنّا في حاجة إلى مصدر طاقة لتحديد العطل؛ ما يعني وجوب استخدام البطاريات، خاصة أنّنا نفتقد إلى أيّ مصدر للكهرباء. لكنّ ثمن البطاريات مرتفع، ولم أكن أكسب أنا وجيزري من التصليح ما يكفي لشرائها. لذا، كنّا نمشي إلى المركز التجاري، ونبحث عن البطاريات المستعملة المُلقاة في سلال المهملات، ثمّ نجمع منها خمساً أو ستّاً، إضافة إلى عبوات مشروب شيك شيك الكرتونية. كنّا نجد فائدة في تلك العبوات النتنة حتى بعد تلك السنين كلّها.

بدايةً، كنّا نفحص البطاريات؛ للتحقق من وجود بقايا طاقة فيها؛ وذلك بوصل طرفي سلك مربوط بمصباح (لمبة) بالقطبين السالب والموجب. وكلّما كان المصباح متوهجاً أكثر، كانت البطارية أقوى. بعدئذٍ، كنّا نعيد تشكيل علب الكرتون، ثمّ نلفّها على هيئة أنبوب، ثمّ نضع البطاريات داخله، مع التأكد من وضع القطبين السالب والموجب في الاتجاه نفسه، ثمّ نصل سلكين بالقطبين. بعدئذٍ نوصلهما بموضع البطاريات في الجهاز. كانت تلك المجموعة من البطاريات تحوي عادة طاقة كافية لتشغيل المذياع.

كان نجاح العملية يعتمد - حتماً - على نوع البطاريات، ودرجة استعمالها فيما مضى. ولما كانت أجهزة المذياع المحمولة تحتاج إلى قليل من الطاقة، فإنّها تُستنفد حتى آخر

رمق، في حيث تتطلب أجهزة تشغيل الشرائط توافر طاقة كبيرة، لدرجة أنّ البطاريات لا تقوى على تشغيلها في مرحلة ما، على الرغم من بقاء قليل من الطاقة فيها. يُذكر أنّ أسوأ أنواع البطاريات كان ذلك الذي يحمل اسم تايفر هيدز (الأكثر انتشاراً مع الأسف) المصنّع في الصين؛ إذ كانت البطارية تُستنفد بعد سويغات قليلة من تشغيل أيّ مشغل. لذا، كنّا نفرح أيّما فرح عندما نجد البطاريات المالاوية العزيزة من نوع صن (الشمس) التي كانت الأقوى على الإطلاق، والقادرة على تشغيل أجهزة المذياع بصورة لا مثيل لها.

سيد جيفري، نحن محظوظون لعثورنا على بطارية صن مالاوية جيدة.

صدقت، ستمدنا هذه بالطاقة مدّة طويلة من الوقت.

كان الناس - في أحيان كثيرة - يقتربون منّا ونحن نصلح الأجهزة، قائلين: انظروا إلى هؤلاء العلماء الصغار! ثابروا أيّها الفتية، ويوماً ما ستحصلون على وظيفة محترمة.

وبمرور الأيام أصبحت مهتمّاً بكيفية عمل الأشياء، لكنني لم آخذ الأمر على أنّه نوع من العلوم. وإضافة إلى أجهزة المذياع، فقد أصبحت مولعاً بالسيارات، ولاسيّما تلك التي تعمل بمحرّكات البنزين. وكنت أفكر دائماً في الطريقة التي تعمل بها، وأبحث عن جواب لسؤالتي: كيف يحدث ذلك؟ حسناً، من السهل معرفة ذلك؛ ما عليك سوى سؤال أيّ شخص يملك سيارة. لذا، كنت أستوقف سائقي الشاحنات في السوق التجاري وأسألهم: ما الذي يحرك هذه الشاحنة؟ لكنّ أحداً لم يكن يعرف الإجابة. كانوا بيتسمون فقط، ويهزّون رؤوسهم. صدقاً، كيف لهم أن يقودوا الشاحنات وهم لا يعرفون مبدأ عملها؟

حتى والدي الذي ظننت أنّه يعرف كلّ شيء، قال: يشتعل الوقود ويطلق النار... حسناً، تست متأكداً.

كانت مشغلات الأقراص المدمجة قد بدأت تلقى رواجاً في المركز التجاري، وأصبحت مولعاً بها بصورة أكبر. وكنت أناظر الناس وهم يدخلون أقراصهم اللامعة في أجهزةهم لسماع الموسيقى.

كنت أسأل: كيف يضعون الصوت على تلكم الأشياء؟

وكانت إجابة معظم الأشخاص: ومنْ يهتم؟

وعلى الرغم أنّ الناس في المركز التجاري اكتفوا بالاستمتاع بتلك الأشياء من دون أكثرات لتعرّف طبيعة عملها، فإن تلك الأسئلة كانت دائماً تدور في خلدي. وإذا كانت وظيفة العالم هي كشف ذلك الغموض، فما أريده، إذن، هو أن أصبح عالماً.

كنت حينها أرتاد مدرسة ويمبي الابتدائية، الواقعة على بُعد كيلومتر واحد نزولاً في الطريق الحرجي الذي يمرّ من أمام بيت غيلبرت. كان عليّ الخضوع لامتحان شهادة إخلاء طرف في السنة اللاحقة؛ فإن نجحت، أنتقل إلى المدرسة المتوسطة، حيث يخضع الطلاب لدروس موسّعة في العلوم، ويجرون التجارب العلمية.

أما أنا، فإن أصبح عالماً أفضل بكثير من العمل في الزراعة التي أصبحت - في تلك القحبة - تستنفد جزءاً كبيراً من وقتي. كان والدي لا يزال يزرع بعض التبغ لبيعه في المزاد، لكنّ محصولنا الرئيس كان - وما يزال - الذرة (تشيماغا) التي كانت تؤمّن الطعام لعائتي طوال العام. يُذكر أنّ معظم المالاويين يعتاشون على الزراعة، كما يعتمد المزارعون على أراضيهم المزروعة ذرة للبقاء. فإذا لم يكن بمقدورك جلب الطعام من أيّ مكان، فإنّ مؤونتك من الحبوب - في الأقل - كفيلة بإطعام عائلتك. حتى الناس الذين يسكنون المدينة، فقد اعتمدوا على شقيق أو ابن أخ يسكن القرية لرعاية قطعة الأرض المزروعة ذرة عوضاً عنهم. وكان الجميع في حاجة إلى ذلك في موسم الزراعة حينما تكون أسعار الحبوب مرتفعة في السوق.

تؤكّل الذرة مع كلّ وجبة في مالاوي، حيث تقدّمها معظم العائلات على هيئة عصيدة كالعجين، تُسمّى سيمبا. وتُصنّع السيمبا بتحريك طحين الذرة في ماء ساخن (ليس مغلياً) حتى تصبح مكتنزة ويصعب تحريكها، ثمّ تقسم إلى أجزاء بحجم شطيرة الهمبرغر الأمريكية. ويمكن للشخص بعدها أن يقطع جزءاً منها ويكوّره في راحة اليد، ثمّ يغمسه في الصوص - يكون عادة فولاً أو خضراوات، من مثل: الخردل، وثقل العنب، وأوراق اليقطين، بحسب الموسم. وفي حال كانت حالة عائلتك ميسورة، فقد تحصل على لحم الغنم أو الدجاج. أمّا ما أفضله أنا فهو السمك المجفّف مع الطماطم.

وبوجه عام، يعتمد الجميع في العيش على السیما، بدءاً بالسیاسیین البدناء، وانتهاءً بالكلاب والقطط. ففي كل ليلة بعد العشاء، يكون كهامبا في انتظار وعاء طعامه لتناول ما لذ وطاب. لم يكن يوضع أكله في معظم الأحيان؛ إنَّما يستنشقه فقط. وكنت أسأل حينها: كيف له أن يتمتع بهذه الطريقة؟

لا تُعدُّ السیما جزءاً رئيساً من غذائنا فحسب، بل تعتمد عليها أجسامنا كما تعتمد السمكة على الماء للبقاء. وفي حال وجَّه أجنبي إلى مالوي دعوة للعشاء وقدم له شريحة لحم وباستا، إضافة إلى كعك الشوكولاتة كتولية، ولكن من دون سیما، فإنَّه يعود إلى البيت قائلاً لأشقائه وشقيقاته: لم يكن هنالك طعام، بعض الشرائح والباستا فقط. أمل أن أتمكن من النوم الليلة.

تُعدُّ زراعة التشیمانجا نشاطاً عائلياً يتطلَّب جهود كلِّ رجل وامرأة وطفل قادر على العمل. وقد تقدَّم الفتيات الصغيرات المساعدة أحياناً؛ سواء في الزراعة، أو إزالة الأعشاب، أو الحصاد، لكنَّهنَّ يساعدن أمهاتهنَّ غالباً في الواجبات المنزلية الكثيرة؛ كإحضار الماء، والطبخ، والتنظيف، والعناية بالصغار. وقد جرت العادة على تجاهل إسهامات المرأة في مالوي. فعندما أصبحت في سنِّ الثانية عشرة، كان لدي خمس شقيقات، وكنت أنا الولد الوحيد، ما يعني أنَّ مسؤولية مساعدة والدي في الحقول تقع على كاهلي فقط.

يبدأ العمل في حزيران بتنظيف الأرض من بقايا محصول الموسم الذي حُصد في أيار. وكان علينا جمع جريد الذرة الجاف وتكديسه في كُوم تُسمَّى تشيكوسي، ثمَّ ترتيبها في صفوف. وحالما تصبح التشيكوسي مرتبة على نحوٍ جيد، أُضرم النار فيها وأنتظر. وتتخذ الجنادب من هذه الأكوام بيوتاً لها، فعندما تشتعل فيها النيران، تطير مئات الجنادب هاربة، ما يجعل عملية اصطيادها سهلة. حيث أضعها في أكياس السكر، ثمَّ أخذها إلى البيت كي أشويها على النار بعد تمليحها. أوكد لكم أنني قادر على تناول كمية كبيرة من السیما مع الجنادب المقرمشة. لم يكن لزاماً اصطياد الجنادب في أثناء العمل. ولكن، كما يقول المثل السائر عندنا: عندما تذهب لرؤية البحيرة، فإنَّك ترى فرس النهر أيضاً.

أمضينا معظم شهر آب حتى أواخر شهر تشرين الثاني ونحن نحفر في التراب صفوفاً جديدة، أو ما يُسمّى الأثلام. فكنت أتناول معولي وأفضل التلمين الموجودين مسبقاً لأصنع واحداً جديداً في المنتصف. كانت تلك طريقتنا في تدوير التربة. وبسبب أنه موسم الجفاف، فقد كانت التربة صلبة، وتتطلب مني استخدام كامل قوتي لكي أتمكن من تفريقها، الأمر الذي أدى إلى ظهور تقرّحات كبيرة على يدي. ليس ذلك فقط؛ بل كانت التربة تحتوي على كتل كبيرة، الأمر الذي تطلب سحقها بمقبض المعول، ما يجعل العملية تستغرق وقتاً أطول. وعلى الرغم من أنّ التربة الناعمة تسمح بنمو البذور من دون عوائق، فإن بعض المزارعين يتناقلون عن فعل ذلك، ويتركون هذه الكتل على حالها؛ ما يجعل غلتهم قليلة.

وبسبب أنّ الجو يكون حاراً جداً في أثناء النهار، فقد اضطرت إلى حفر الأثلام في الصباح الباكر قبل الذهاب إلى المدرسة، ثم العودة مرة أخرى لإكمالها في المساء قبل هبوط الظلام. وفي حال كان القمر مكتملاً ومضيئاً، كنت أستيقظ في الرابعة صباحاً، قبل صياح الديك، وقبل طلوع الضوء، ثم أمشي باتجاه المرحاض متعثراً وأنا حامل مشعلي، محاولاً عدم الالتفات إلى العناكب الموجودة على السقف بأرجلها البيض والسود، وأجسامها الكبيرة الشعورة، أو الصراصير التي تحرّك قرون استشعارها في الضوء، كأنّها تقول: هذا وقت اللعب المخصّص لنا. لذا، يجب أن تكون في سريرك الآن! أيضاً، يمكنك في سكون الصباح أن تسمع كل شيء، حتى أسراب النمل الأبيض وهي تأكل الجدران، وتصدر صوتاً يشبه صوت شخص يمشي على العشب في الخارج. وفي أثناء عودتي إلى الداخل، كنت أسحب دلو ماء من البئر الضحلة خلف بيتنا، ثم أغسل وجهي (كانت تلك مياهاً غير صالحة للشرب). وفي هذه الأثناء، تكون والدتي قد استيقظت، وأعدت طبقاً من عصيدة الذرة تُدعى بهالا. كنت أتناول الطعام بسرعة، ثم أجوز الطريق نزولاً، جازاً معولي خلفي. وكثيراً ما كان والدي يناديني قائلاً: تأكد أين تضرب بالمعول في أثناء الظلام. لا أريدك أن تؤذي قدمك!

فأردّ عليه بقولي: حسناً يا أبت.

وتعدّ إصابة الأقدام أو قطعها حادثاً عادياً في أثناء موسم التحضير والزراعة. لذا، فقد كان شائعاً مشاهدة أطفال يلقون أكياس السكر البلاستيكية أو الصحف على أقدامهم

بخيط (بوصفها نوعاً من الضمادات المؤقتة)؛ لإبعاد الذباب والتراب. وكان ذلك لا ينفع على أيّ حال؛ لأنك مضطر إلى العودة والعمل في الحقول صباح اليوم الآتي. أمّا الجروح التي قد يصاب بها أحدهم، فكانت لا تلتئم على نحوٍ جيد دائماً، وكلّ مالاي نشأ في القرية لديه عدد من الندوب تُثبِت ذلك.

كانت الطرق مظلمة ومليئة بالظلال حتى في حال كان القمر بدرًا. لذا، كنت أمشي بحذر، حريصاً في كلّ خطوة أخطوها، ومحاوياً عدم تخيّل الغول وامكولو وهو يراقبني من بين الأشجار، أو أولئك الرجال الصلع الذين يطبّرون فوق بطائرهم السحرية. وبغضّ النظر عن مكان وجودي أو سنّي، فإنّ تلك الأمور كانت تبعث في نفسي الخوف دائماً في الساعة الرابعة صباحاً. وذا صباح، كنت أمشي في الدغل، فاذا بضبع تُحفّف بين الأشجار؛ أووووو، ما أصابني بهلع كبير. لم أذكر أنّي ركضت بتلك السرعة طوال حياتي؛ لقد أطلقت ساقِي للريح

تبدأ السماء تمطر عادة في الأسبوع الأول من شهر كانون الأول، ويستمر ذلك حتى نهاية شهر آذار. وكان ظهور أول علامات المطر يشير إلى ضرورة البدء بالزراعة. ويمكن تشبيه هذا الأمر بشارة الانطلاق في سباقات العدو؛ إذ يتعيّن عليك أن تكون مستعداً حين يهطل المطر، بحيث تتناول المعول وتتوجّه بسرعة إلى الأثلام لإحداث شقوق صغيرة في التربة؛ على أن يتبعك شخص آخر ليضع ثلاث بذور داخل كلّ منها، ثمّ يطمرها بالتراب، مع كثير من الأمان. وبذا، تكون الحقول في شهر كانون الأول غليظة موحلة، تلتصق بقدميك كالحلوى.

وبعد عدّة أيام ممطرة، تخترق الفسائلُ التربة لتفتّح عليها أوراق صغيرة. وبعد ذلك بأسبوعين، إذا كان المطر كافياً، نضع أول دفعة من السماد بعناية؛ لأنّ كلّ فسيلة تحتاج إلى حُبّ ورعاية لتنمو قوية، شأنها في ذلك شأن بقية الكائنات الحية.

كان تحضير المزروعات هو عملي المفضّل. لذا، لم أكن مضطراً إلى انتظار أحد يعمل قبّالتي، ما أتاح لي المغادرة باكراً لشيّ الذرة، وهو أمر يمثّل لذّة نادرة في شهر كانون الأول.

وبوجه عام، يمكن للشخص أن يقتات على محصوله، بدءاً من شهر أيار، وانتهاءً بشهر أيلول. فحينئذٍ، تكون الذرة متوافرة بكميات كبيرة، وتكون الوجبات ضخمة. مثلما

يكون فصل الشتاء في النصف الجنوبي للكرة الأرضية. كُنّا في تلك الليالي الباردة، نجتمع حول النار، ونشوي الذرة في مقلاة مسطّحة؛ نضحك، ونروي القصص، وندندن الأغاني الجميلة. ولكن، حين يحين موسم الزراعة في شهر كانون الثاني، تصبح مؤونة الذرة لدى معظم العائلات شحيحة، فتعدّ أيّ فرصة للقاء الأقارب والأصدقاء لشَيّ الذرة وليمةً في حدّ ذاتها. إنّ رائحتها في أثناء الشواء لذيذة، وتبعث السعادة في نفوس الجميع. ويعدّ تناول وجبات السیما في أوقات الشحّ تلك مصدرَ بهجة.

يحين وقت شراء السماد والبذور في شهر كانون الأول؛ وهي عملية مكلفة جداً ومرهقة للمدخرات والجيوب. لذا، كان يحاول بعضهم توفير قليل من المال لشراء دجاجة أو بعض الأرز؛ لكي يتناوله في عيد الميلاد أو رأس السنة. ومع ذلك، فقد كان جُلّهم يخرج خالي الوفاض بعد هذه المناسبة. وحين يطلّ شهر كانون الثاني؛ كان معظم الناس يضطرون إلى شدّ الأحزمة حتى موعد الحصاد. فالسماء دائماً تمطر في الخارج ليل نهار، حتى الطيور لا تجد ما تأكله؛ لأنّ الكائنات كلها منهمكة في النمو. إنّ وقت مليء بالحرارة والطين والانتظار.

يُطلق على هذا الوقت من السنة اسم موسم الجوع؛ ذلك أنّ الناس في الأرياف كانوا يبذلون أقصى جهدهم لتهيئة الحقول، مع تناول كميات قليلة جداً من الطعام. لذا، كان منطقياً انصاف مثل هؤلاء الأشخاص بالهزال والبطء والضعف. وتعرّض كثير من الأطفال إلى الموت جوعاً في بعض الأحيان. لقد اعتدنا التعايش مع موسم الجوع، تماماً مثل صياح الديك وشروق الشمس في الصباح.

وفي حال مرّ كلّ شيء على ما يرام، فإنّ الأمطار الغزيرة في شهري كانون الأول وكانون الثاني، تتيح نمو الفسائل، ويتعيّن أن تصل في هذا الوقت إلى ركبتي والدي. بعدئذٍ، تبدأ حبّات الذرة الصغيرة بالتكوّن، وتزهر بعد أسابيع عدّة عناقيد من الشعيرات الحريرية، مع زهرة طويلة شرّابة. وما إن يحلّ شهر شباط حتى يكون المحصول غزيراً وقوياً بحيث يطاول صدر والدي. ومع حلول وقت الحصاد في شهر أيار، يكون المحصول قد تجاوز رأس والدي، وبخاصة إذا تعرّض للتسميد. عنئذٍ، تُترك الذرة على سوقها حتى تجف، ثمّ تُقطّف. يلي ذلك تخزين الحبوب في أكياس كبيرة سعتها خمسون كيلوجراماً، ثمّ توضع في مخزن

صغير بجانب غرفة والديّ. وفي حال كان الموسم جيداً، فقد تجاوز الأكياس السقفَ ويفيض محتواها في الممر.

وبخاصة تسيير عملية الزراعة والحصاد عادة كل عام. ولكن، في شهر كانون الأول من عام 2000م، لم تسر الأمور على ما يرام؛ إذ انحبس المطر، ولم يهطل إلا في الأسبوع الأخير من هذا الشهر. وقد مدّت الزخات الأولى الفسائل بالثقة لتتمكّن أخيراً من شقّ طريقها من خلال التربة. لذا، سمّد المزارعون الأرض، والأمل يحدوهم بهطل الغيث. لكنّ الأمطار التي تلت كانت غزيرة، وهطلت ليل نهار مدّة أسبوع. فضربت البلاد موجة من الفيضانات العارمة، التي جرفت البيوت والماشية، إضافة إلى الفسائل التي بدأت تنمو للتو. ولحسن الطالع، لم تصل الفيضانات إلى منطقتنا، لكنّ الأمطار جرفت السماد، وجرفت معها أيّ أمل بالحصول على محصول وفير.

وممّا خفف من وقع المصيبة أنّ كثيراً من المزارعين لم يتمكّنوا من شراء السماد أصلاً، حالهم كحالنا. وقد تسبّبت سياسات الرئيس الجديد في ارتفاع سعر كيس السماد من نوع إن بي كيه (يحتوي على نيتروجين، وكبريت، وبوتاسيوم) ليصل إلى ثلاثة آلاف كواتشا. وكان ذلك يفوق قدرتنا على شرائه أساساً، فما بالك الآن وقد جرفت الأمطار الدفعة الأولى منه! يُذكر أنّ الرئيس تحدّث بوساطة محطة راديو وان بعد الفيضان، وأقسم أن يساعد المزارعين كافة بتوزيع (طرود إعانة) تحوي كيلوجرامين من بذور الذرة، وخمسة كيلوجرامات من السماد. وقد وُزعت على كلّ مزارع محتاج في مالوي طرود شبيهة بما وُزّع عامي 1998م، و1999م؛ إذ كانت الأمطار جيدة في هذين العامين، وساعدت الطرود التي حوت البذور والسماد على جني محصول وفير. لكنّ ضغوط الدول المانحة تسبّبت في حجب البرنامج عن مليون مزارع تقريباً. لذا، كان سماع وعد الرئيس بتوسيع دائرة المساعدات أمراً جيداً.

مرّ شهر على هذا الوعد ولم يحدث شيء. بعد ذلك، وضعت الحكومة قائمة في المركز التجاري تحوي أسماء المزارعين المستفيدين من تلك الطرود. ولم تحوِ هذه القائمة اسم والدي، إلى جانب كثيرين غيره. لكنّ الأمر لم يكن ذا أهمية؛ فالمطر كان قد توقّف حينها.

بعد الفيضان، اختفى المطر فجأة لتصاب الأرض بلعنة الجفاف. كانت الشمس تُشْرِقُ حارقة في السماء كلَّ يوم، ولا تُظهِرُ أَيَّ شفقَةٍ بالفسائل الفتية التي تمكّنت من البقاء حتى اللحظة. ومع حلول شباط، كانت المحاصيل قد ذبلت، وانحنت نحو الأرض كامرأة عجوز تكس التراب. ولحسن الطالع، فقد أنقذتنا زخات المطر التي هطلت في شهر آذار من كارثة حقيقية، وساعدت المحاصيل على النمو قليلاً. وبحلول شهر أيار، كانت الشمس قد أحرقت نصف المحصول. أمّا تلك التي تمكّنت من الصمود، فكانت ضئيلة لا تصل إلى صدر والدي.

في ظهيرة أحد الأيام، مشيت في الحقول برفقة والدي، وشاهدنا الدمار الذي حلّ بها. كانت أوراق الذرة تشبه البصل؛ بنية هشّة، تتفتّت بمجرد لمسها. كلانا كان يفكّر في الأمر نفسه، لكنني كنت أول من نطق: ماذا سيحلّ بنا العام المقبل يا أبي؟

قال متهدأً: لا أعرف. نحننا لسنا الوحيدين على الأقل؛ إذ يواجه الجميع الظروف ذاتها.

كان والدي محقّقاً؛ ففي بعض المناطق الأخرى، كان المحصول أقلّ من المتوقع. لكنّ المتضرّر الأكبر من الجفاف كان القرى الصغيرة؛ لأنّها تحتوي على مزارع صغيرة يتعيّن عليها إطعام عائلات كبيرة على مدار العام. ففي حال طرأت مشكلة صغيرة تتعلق بالمناخ، أو السماد، أو البذور، فقد يعني ذلك معاناة تلك العائلات مجاعةً طوال العام. كانت تلك السنة بداية مواسم عدّة من الجفاف.

أما مزرعتنا، فقد تمكّنا من ملء خمسة أكياس من الحبوب، لم تغطّ زاوية المخزن كلّها. وقبل أن أخلد إلى النوم ذات ليلة، شاهدت ضوءاً يلمع في الداخل، ووجدت والدي يقف وحيداً، وهو يحدّق بالأكياس كأنه يوجّه إليها سؤالاً. وبغضّ النظر عن الإجابة، فقد كنت على وشك اكتشافها بنفسني.

